١١ ـ تفســـــير الأحلام

للعلامة سجموند فرويد

سلسلة محاضرات ألقاها في فينا

للأستاذ محمد جمال الدين حسن

الرموز في الأحلام :

والقيام برحلة بعيدة يعبر في الأحلام عن الموت . وبالمثل جرت العادة أن تقول المربية للطفل عندما يسأل عن مقر شخص مات من زمن وأحس الطفل بفقده أن هذا الشخص قد «سافر». وهنا أقرر كذلك أنني أعني إن هذا الرمز يرجع مصدره إلى هذا الرد الملتوى على سؤال الطفل . فالشاعر يستخدم نفس الرمز عندما يتحدث عن الآخرة فيقول : « هذا العالم المجهول الذى لا يؤوب منه المسافر أبداً » ؛ وكذلك من المألوف في حياتنا اليومية أن نتحدث عن « الرحلة الأخيرة »(١) كما أن الشخص الذى له إلمام بالطقوس الدينية القديمة يعرف بلا شك كيف كان الناس يحملون على محمل الجد هذه الفكرة عن رحلة في أرض الأموات ، كما هو الحال في المعتقدات المصرية القديمة . ولما كانت القبور تشيد الآن بعيداً عن منازل الأحياء ، فقد صارت « الرحلة الأخيرة » للميت حقيقة واقعة .

والرموز الجنسية ليست قاصرة على الأحلام فقط ؛ فكلكم يعرف أننا نطلق على المرأة كلمة « شنطة »(٢) عندما نريد أن نحتقرها ، ولكن ربما لا يعلم الناس أنهم بذلك يستخدمون في حديثهم رمزاً جنسياً . ونحن نقرأ في كتاب « العهد الجديد » أن : « المرأة هي الوعاء الأضعف » وفي الكتب المقدســـة لبني اسرائيل ، وهي تمتاز بأسلوبها الذى يقرب جداً من الأسلوب الشعرى ، نعثر على كثير من التعبيرات التي تحتوى على رموز جنسية ، والتي لم يفسرها النـاس دائما على الوجه الصحيح . أما في الآداب العبرانية التي جاءت بعد ذلك ، فالمرأة تشبه غالباً بمنزل ، بينما الباب يمثل الفتحة التناسلية ؛ وعلى هذا نرى الرجل يتشكى عندما يكتشف أن المرأة لم تكن عذراء فيقول أنه « قد وجد الباب مفتوحاً » وفي هذه الآداب نرى أيضاً أن «المائدة» يكثر استعمالها كرمز للدلالة على المرأة ، فتقول المرأة عن زوجها : « لقد مددت له المائدة ولكنه قلبها . » ويقال عن الأطفال الذين أن عاهتهم ترجع إلى أن الرجل قد « قلب المائدة . »

وعلماء الكلام يعضدون الاعتقاد بأن السفن في الأحلام تمثل النساء . فهم يؤكدون أن كلمة Schiff (سفينة) كانت في الأصل اسما لوعاء من الخزف ، وتؤدى نفس المعنى الذى تؤديه كلمة Sshaff (دنّ أو وعاء من الخشب) . وأما كون « الفرن» يمثل المرأة أو رحم الأم ، فتفسير تعززه الرواية الأغريقية عن « بيرياندر » وزوجته « ميليشيا » ، وذلك أن الطاغية ، كما يروى « هيرو دوتس » ، بعد أن قتل امرأته بدافع الغيرة ، وكان قد أحبها حباً جارفاً ، ناشد خيالها أن يخبره بشيء عن نفسه ، وعند ذلك أثبتت المرأة الميتة شخصيتها بأن ذكرته بأنه . أى « بريانذر » قد « وضع خبزه في فرن بارد » وقد عبرت بهذه الصيغة المستترة عن حادث لم يكن أحد على علم به . وفي كتاب للكاتب « رأفْ . رأسْ . كروسْ » (anthrobophyteia) يدعى « F.-S. Kraus » وهو موسوعة لا غنى عنها لمن يريد أن يلم بكل ما يخص الحياة الجنسية عند الشعوب المختلفة ، نقرأ أن الناس في حى خاص من ألمانيا يقولون عن المرأة عندما تضع طفلا أن « فرنها قد تفتتت أجزاؤه » . وأشـعال النار وكل ما يتعلق بذلك تتخلله كثير من الرموز الجنسية ، فاللهب دائما يمثل القضيب ، بينما الموقد أو المدفأة تمثل رحم المرأة .

وإذا كان قد اتفق أن أخذكم العجب لكثرة وقوع « الأمتاع » في الأحلام كرمز للدلالة على الأعضاء التناسلية للانثى ، فإن في استطاعتكم أن تعلموا من أساطير الأقدمين كيف كانت « أمنا الأرض » تلعب دوراً كبيراً في أفكار الناس ومعتقداتهم ، وكيف كان فهمهم للزراعة كله محدداً بهذا الرمز. وإذا كانت الحجرة في الأحلام تمثل المرأة ، فإنكم قد تميلون إلى إرجاع هذه الحقيقة إلى الكلمة الألمانية Frauenzimmer (ومعناها الحر في حجرة المرأة) التي تستخدم في اللغة السامية للدلالة على المرأة (Frau) ، أى أن المرأة تمثل بالمكان المخصص لها لتشغله : ونحن كذلك نتحدث عن « الباب العالى » ونقصد بذلك السلطان وحكومته ، كما أن كلمة « فرعون » التي كان يطلقها قدماء

(١) ونحن نقول في النص : « انتقل فلان الى جوار ربه » . والانتقال والارتحال واحد .

(٢) اللفظة المستعملة عندنا هي « برميل »

المصريين على الحاكم معناها « الفناء الأعظم » (الفناء الذى يقع بين بوابتى المدينة كان يستعمل فى الشرق قديماً كمكان للاجتماع مثل الأسواق فى العصور الكلاسيكية) ولكنى أحسب أن هذا الاشتقاق سطحى جداً ، وإنما يتهيأ لى أن الأكثر احتمالا هو أن الحجرة قد صار استعمالها كرمز للدلالة على المرأة لما لها من خاصية الاحتواء بداخلها على بنى الإنسان . وقد سبق لنا أن رأينا المنزل يستخدم فى نفس المعنى ؛ وإذا رجعنا إلى الأساطير والشعر فإن فى استطاعتنا أن نعتبر المدن ، والقلاع ، والقصور ، والحصون ورموزاً أخرى كذلك تمثل المرأة . وهذه النقطة من الممكن البت فيها إلى رجعنا إلى أحلام الأشخاص الذين لا يتكلمون الألمانية أو يفهمونها . وقد حدث فى السنوات الأخيرة أن أغلب مرضاى كانوا من الأجانب ، وانى لأحسبنى أتذكر أن الحجرة كانت تبدو فى أحلامهم أيضاً الدلالة على المرأة ولو أنه لا توجد فى لغتهم العامية كلها تقابل كلمة Frauenzimmer عندنا. وهناك دلائل أخرى على أن الرمزية تتجاوز حدود اللغات وهى حقيقة سبق اثباتها قبل الآن على يد الباحث القديم « شوبرت » (Schubert) عام ١٨٨٢ . ومع هذا فإنه لا يوجد بين مرضاى من يجهل اللغة الألمانية جهلا تاماً ، وعلى هذا فإننى أترك هذه النقطة ليبت فيها أولئك المحللون الذين فى استطاعتهم أن يجمعوا شواهد من بلاد أخرى لا يتكلم أهلها إلا لغة واحدة فقط

والرموز المستعملة للدلالة على العضو الجنسى المذكر لا يوجد بينها رمز لم يجر استعماله فى معرض المداعبة أو الحديث المبتذل ، أو فى الأسلوب الشعرى خصوصاً عند القدامى من الشعراء الكلاسيكيين ونحن لا نعثر هنا على الرموز التى تقع فى الأحلام فقط ، بل على رموز أخرى كذلك مثل « الأدوات » المستعملة فى أنواع العمل المختلفة وأهمها « المحراث » . وفضلا عن ذلك فيدان الرموز المذكرة ميدان متسع إذا نزلنا إليه تعرضنا لكثير من المناقشات والجدل ، وعلى هذا فسنتجنب ذلك خوفاً من ضياع الوقت . ولكنى أريد فقط أن أوجه بعض الملاحظات إلى الرمز الذى يظهر كثيراً قائماً بذاته ؛ أعنى العدد « ثلاثة » . فهذا العدد تحيط به هالة من القداسة لا نستطيع أن نقرر بعد إن كانت ترجع إلى دلالته الرمزية ، ولكن يبدو أنه مما لا شك فيه أن الأشياء الطبيعية الثلاثة الشكل مثل عود البرسيم تستخدم كشعار لدلالتها الرمزية . وزهرة الزنبق الفرنسية بأجزائها الثلاثة يقال انها ليست إلا صورة تذكرية للعضو الجنسى المذكر ، وكان الناس فى العصور القديمة يعتقدون أن « الأيقونة » منها هى أقوى الوسائل التى تدفع عنهم الشر والأذى ، والدليل على ذلك أننا نجد فى هذا العصر أن الطلاسم التى تجلب الحظ السعيد ما هى إلا رموز تناسلية أو جنسية . دعونا ننظر فى بعض هذه الطلاسم التى تصنع على شكل (دلايات) من الفضة وهى : عود البرسيم ذو الأربع ورقات ، والخنزير ، وعش الغراب ، وحدوة الحصان والرجل الذى يكنس المدفأة ومعه سلمه ، أما عود البرسيم ذو الأربع ورقات فقد حل محل العود ذى الثلاث ورقات الذى كان فى الواقع أنسب للغرض المطلوب وهو الرمزية ، وأما الخنزير فرمز قديم للاخصاب ، وعش الغراب يمثل القضيب من غير شك ، بينما حدوة الحصان ترسم المنحنى الذى تتخذه الفتحة التناسلية للأنثى . وأما « الرجل الذى يكنس المدفأة » بسلمه فينتمى إلى هذه المجموعة لأن وظيفته تقارن دائماً بعملية الجماع فى الأحاديث المبتذلة . وقد تعلمنا من الأحلام كيف يظهر هذا السلم كرمز جنسى ، وهناك تعبيرات فى اللغة تدل على ما لكلمة « Steigen » (يصعد) من الدلالة الجنسية المطبقة مثل قولهم Den Fruen nacheteigen (يجرى وراء المرأة) . وهكذا الحال أيضاً فى اللغة الفرنسية حيث نجد أن كلمة La marche معناها « درجة » وأن الرجل العجوز المتهتك يطلق عليه : un vieux marcheur ورعا كان هذا الترابط بين الأفكار يرجع إلى أن عملية الجماع عند الحيوانات الكبيرة تستلزم أن يحتطى الذكر أو يركب على الأنثى .

أما تمثيل العادة السرية رمزياً بوساطة جذب فرع من الشجرة فليس مما يتفق مع الأوصاف العامية المبتذلة لهذه العملية فحسب ، بل إن له كذلك أشباهاً فى الأساطير . ولكن الغريب الذى يلفت النظر حقا هو تمثيل العادة السرية أو على الأصح الخصاء كعقاب للادمان عليها ، بسقوط أو اقتلاع الأسنان ؛ لأننا نجد فى القصص الشعبية مقابلا لذلك لا يمكن أن يلم به إلا قليل من الحالمين . فانى أظن أنه ما من شك فى أن « الختانة » وهى عادة عند كثير من الشعوب ، تعتبر معادلة أو بديلة من الخصاء . وقد وصل إلينا منذ عهد قريب أن بعض القبائل الشاذة فى أستراليا تمارس الختانة كطقس للدلالة على البلوغ بينما بعض القبائل الأخرى التى تجاورها قد استبدلت هذه العادة بعادة أخرى وهى اقتلاع إحدى الأسنان .

(يتبع) محمد عبد العزيز عيسى